اصلاح النسل

مدخل الى هذا العلم الخطير الشأن

للدكتور شريف عسيران

مقام وتاريخ

ان موضوع اصلاح النسل من الموضوعات الاجتماعية الخطيرة الجديرة بالبحث لانهُ يتناول نواحي الحياة المختلفة من شخصية واجتماعية واقتصادية وسياسية وطبية وتهذيبية وغير ذلك مما يهم الفرد والمجتمع ويؤول الى خيرهما واسعادهما

قال الاستاذ باتسون رئيس مجمع تقدم العلوم البريطاني سنة ١٩١٤ ان المسائل السياسية التي يقتضي حلها معرفة الحقائق البيولوجية كثيرة ومنها مسائل التعليم والقوانين الجنائية وجميع فروع الادارة والسياسة فكثيراً ما تعرض لاهل السياسة مسائل يحكمون فيها فيما يمكن عمله او ما لا يمكن عمله لاحداث تغيير مطلوب في فرد مخصوص او في شعب بكامله ولا بد للحكم في هذه المسائل من المعرفة بالحقائق البيولوجية ولا تعد المعارف البيولوجية من المعارف الضرورية لاهل السياسة والاحكام في الوقت الحاضر ولكن سوف يأتي يوم يضطر فيه المعلم والحاكم والمحامي والسياسي الى الاشتراك مع الطبيعي في معارفه التي تتعلق بفسيولوجيا الشعوب[1]. وقد اهتمت به الامم الراقية في عصرنا الحاضر واحلتهُ محله الرفيع فسنّت له القوانين والانظمة وظهرت عشرات لا بل مئات من الكتب فيه لاشهر علماء العصر وكثر انصاره والمنضوون تحت لوائه والداعون اليه مع انهُ لا يزال طفلاً يترعرع. وسندرسهُ على ضوء الحقائق العلمية الصحيحة المجردة عن العاطفة والخيال والمبالغة في الاقوال معتمدين على اوثق المصادر المعترف بها في عالم العلم. وسنجد فيه لذة وغذاء شهيًّا للنفس التواقة الى المعرفة

﴿ تاريخه ﴾ ليست فكرة اصلاح النسل من مبتكرات عصرنا الحاضر بل سبقنا اليها الاقدمون. فقد ذكرها الشاعر اليوناني تيوجينيس في النصف الاول من القرن الثاني قبل المسيح وبحثها افلاطون محوقرن بعده واقترح ان تتدخل الحكومة في الامر بتزويج الاحسن للاحسن والاردإ للاردإ وتشجع تناسل الفئة الاولى وتتولى تربية اولادها وتقذف باولاد الفئة الثانية

(١) العلم والعمران هدية المقتطف السنة ١٩٢٨ ص ٢١٣

في مجاهل غير معروفة[1] وان لا تتألف جمهوريته من اكثر من ٥٠٤٠ وطنيًّا Citizens واشار بتحديد النسل لحفظ موازنة هذا العدد[2]

وقد طرق ارسطاطاليس هذا الموضوع من الناحية السياسية والاقتصادية وايد مذهب تدخل الدولة في النسل[3] وينسب اليه القول الآتي : اذا ولدت امرأة عدد الاولاد المحدد لها ثم حملت فيجب طرح الولد منها قبل ان تدب فيه نسمة الحياة[4] ويروي لنا التاريخ ما كان يفعله الاسبرطيون في سبيل تحشين ابنائهم بتدريبهم على القروسية وتعريضهم لقارس البرد ولافح الحر ليخلقوا منهم رجالاً اولي بأس وقوة يكافحون في ميادين القتال وينتصرون على الاعداء

﴿ اصل اللفظة ﴾ ان لفظة يوجنكس Eugenics يونانية الاصل ومعناها الاصيل او الجيد الولادة Well born. واول من طبعها بطابع العلم الحديث العلامة الانكليزي الناغ السير فرانسيس غالتون صاحب المصنفات النفيسة في الوراثة واصلاح النسل ومقياس الذكاء وبصم الاصابع وغيرها من البحوث الاحيائية الاجتماعية المتنة ولا يليق بنا ان نمر بشخصية فذة كهذه من دون أن نتوسع قليلاً في دراستها

العبقري غالتون

ولد غالتون (١٨٢٢ — ١٩١١) في نفس السنة التي ولد فيها مندل ولم يعلم شيئاً عن ابحاثه التناسلية في النبات ولكنهُ طرق الموضوع من ناحية اخرى احصائية وظهرت رسالته قبل رسالة مندل بشهرين وبرهن في كتابه « النبوغ الوراثي » الذي سنشير اليه فيما بعد على ان النبوغ والتفوق العقلي وغيرهما من المواهب جبلية وراثية وعرف اصلاح النسل بما يلي : اصلاح النسل هو درس العوامل التي تحت سيطرة المجتمع والتي تمكن بها من اصلاح الجيل المقبل او افساده جسديًّا وعقليًّا[5]. نشر غالتون مقالتهُ الاولى في هذا الموضوع في مجلة مكملان سنة ١٨٦٥ وبين فيها انهُ من الممكن تحسين نسل البشر بعد إلمام جيدهم وتوسع في هذا الموضوع في كتابه النبوغ الوراثي Hereditary Genius[7] وقد تتبع نسب ٤١٥ مشهوراً من مشهوري انكلترا يعتون الى ٣٠٠ اسرة وجد فيها ما يقرب من الالف مشهور[8] منهم ٨٥ قاضياً و ٣٩ سياسيًّا و ٢٧ قائداً و ٣٣ اديباً و ٤٣ طالباً و ٣٠ شاعراً و ٢٨ فنَّاناً و ٢٥ قسيساً[9] وقصده ان يبرهن على ان النبوغ وتفوق المواهب

(١) اصلاح النسل التطبيقي Applied Eugenics, Popenoe and Johnson p. 343, 1933
(٢) Abortion Spontaneous and Induced, Dr. Frederick Taussig 1936
(٣) Applied Eugenics. p. 343 (٤) Abortion Spontaneous and Induced
(٥) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة تحت لفظة Eugenics
(٦) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة (٧) Applied Eugenics p. 344
(٨) Hereditary Genius p. 307 (٩) Applied Eugenics p. 344

العقلية بدرجاتها وراثية . قال في كتابه النبوغ الوراثي : « ان الحجج التي احاول ان استند اليها لابرهن على ان النبوغ وراثي هي وفرة عدد المشهورين الذين يمتون بنسب الى مشهورين مثلهم من أقربائهم » (١)

وسنة ١٨٧٤ طبع رسالة عن سيرة ١٨٠ عالماً انكليزيًّا برهن فيها على ان الوراثة لا المحيط هي الاصل في مواهب الانسان وسنة ١٨٨٣ طبع كتابه : البحث عن موهبة الانسان وتطوُّرها . وطبع غيرها من الكتب التي يستشهد بها كبار المؤلفين في هذا الموضوع وقلما نجد باحثاً يبحث في هذه الموضوعات ولا يستشهد بأقوال هذا العلامة الشهير ويسترشد بمواهبه وعلمه

وسنة ١٩١١ قرأ رسالة امام جمعية علم الانسان Anthropology موضوعها . امكان تحسين نسل الانسان تحت تأثير الشعور والقوانين الحاضرة . وبعد ثلاث سنوات تلا رسالة أخرى أمام الجمعية الاجتماعية موضوعها اصلاح النسل تعريفه ومنهجه وغايته ملخصها : (١) تعميم معرفة قوانين الوراثة (٢) البحث عن معدل مواليد الامم القديمة والحديثة بين طبقاتها الاجتماعية (٣) جمع احصاءات صحيحة عن مقدار العائلات الكبيرة التي نشأت (٤) درس العوامل المتعلقة بالزواج (٥) أهمية علم اصلاح النسل للامم

وأسس سنة ١٩٠٤ كرسيًّا خاصًّا لهذا العلم وأوصى بعد مماته في ١٧ يناير سنة ١٩١١ بتأسيس استاذية لهذا العلم بعهدة Karl Pearson الشهير وخصص لها المبالغ اللازمة من ماله الخاص (٢)

ثم انتشرت هذه الدعاية في أميركا والمانيا وفرنسا وايطاليا وروسيا واكثر الامم الاوربية وبعض الامم الاسيوية كاليابان والصين ولا نطيل الشرح هنا ومن شاء المزيد فعليه مراجعة (Applied Eugenics) وقد اخترنا منهجا مختلفين لهذا الموضوع نشرحها هنا لانهما يلخصان أهم الموضوعات التي سنطرقها في بحثنا وهما نموذج لابحاث هذا العلم الحيوي الخطير

مناهج الامة الاميركية

انتشرت هذه الحركة في اميركا قبل غيرها . ولكنها سارت ببطء فأسس لورن مودي (Lorung Moody) سنة ١٨٨٠ معهد الوراثة في بوسطن وساعده الشاعر الشهير لونغ فلو (Longiellow) وغيره من المشهورين . وكان الكسندر بل مخترع التلفون اول من طرق هذا الموضوع بصورة عملية سنة ١٨٨٣ وأنشئت سنة ١٩٢٦ جمعية اصلاح النسل الاميركية ووضعت سنة ١٩٣١ مقترحاتها الآتية نوردها هنا لانها تبين وجهة نظر الامة الاميركية ونورد بعدها وجهة نظر الامة الالمانية

(١) ادخال موضوع تحسين النسل في مناهج المدارس الابتدائية والعالية وجعله جزءا

(١) Hereditary Genius p. 5 (٢) Applied Eugenics p. 345—46

لا يتجزأ منها والتشجيع على التخصص به في المدارس العالية كالكليات والجامعات (٢) تعميم الارشاد الكافي عن حقائق هذا الموضوع بواسطة الصحافة والمحاضرات والمعارض والكتب والنشرات الخ (٣) تشجيع الابوة والبحث عن الصفات الوراثية النافعة للامة (٤) تشجيع تزويج من يتصفون بصفات وراثية جيدة وذلك بما يلي :

(ا) استقصاء سبب قلة نسل ذوي المواهب المتفوقة

(ب) الحث على تتبع انساب الاسر ودرس الصفات المتأصلة فيها

(٥) منع زواج المصابين بعاهات وراثية كالجنون وما أشبه وسن شرائع خاصة لهذه الغاية

(٦) عزل الآباء والامهات المصابين بعاهات وراثية (٧) سن قوانين خاصة للزواج من جهة تحسين النسل تشمل الامور الآتية :

(ا) جعل الحد الادنى لسن الزواج ١٦ سنة

(ب) تأخير اجازة الزواج ثلاثة ايام من تاريخ الطلب ونشر اعلان عنهُ في الصحف او غيرها

(ت) عدم منح الاجازة الا بعد الحصول على شهادة طبية تثبت سلامة طالب الزواج من الامراض الوراثية والزهرية

(ث) جواز تزويج الاشخاص البيدي القرابة

(ج) ان يدخل ضمن موجبات الطلاق عدا الزنا الجنون الوراثي وضعف العقل والحجر والعقم

(٨) سن قوانين تمنع هجرة من فيهم صفات وراثية غير مرغوب فيها (٩) تعميم ارشاد الناس في طرق منع الحمل تحت اشراف اطباء أكفاء في المستوصفات العامة

منهج الامة الالمانية

تأسست جمعية تحسين النسل الالمانية سنة ١٩٠٥ ونشطت هذه الحركة في المانيا خاصة بعد الحرب العامة وها هوذا ملخص خططها مقابلة للخطط الاميركية

(١) إن الخطر الرئيسي الذي تتعرض لهُ الامم هو الفساد الناشىء من فقدان العناصر القوية الصحيحة (٢) ان الامم التي تستطيع ان تنازع غيرها البقاء هي التي فيها نسبة كبيرة من رجال ونساء ذوي مواهب عقلية وجسدية صحيحة واخلاق وآداب صالحة (٣) ان صحة الامة وحيويتها وانتاجها الثقافي لا تتوقف على المحيط فقط (كالغذاء والتهذيب والامراض الخ) بل على قابليتها الوراثية التي تعد من الاسس الجوهرية في كيانها (٤) ان ميراث الامة الوراثي عرضة للفساد بطريقتين الاولى تقديم العناصر الفاسدة على الصالحة والثانية افساد السلالة بادخال عناصر منحطة اليها (٥) عند الشعوب المتمدنة في الوقت الحاضر اختيار فاسد يؤول الى فساد النسل بمقدار كبير (٦) من سوء الحظ أن يرافق الصعود الاجتماعي فناء الاسر (٧) ان تشجيع تكثير نسل

ذوي المواهب الوراثية المتفوقة الذين يصلحون لقيادة الامة من خيرة الوسائل لتحسين السلالة (٨) من أهم مشكلات حفظ صحة النسل الاحتفاظ بالاسر المهمة اجتماعيًّا من كافة الطبقات (٩) إن النسل الذي لا يصلح يتوقف على منعه اكثر مما يتوقف على تعجيب أسبابه (١٠) لما كان جميع المواليد لا يمثلون مستوى الانتاج المتفوق فخطة الاكتفاء بولدين ليست حميدة لانها تؤول الى انقراض الاسر عقب اجيال قليلة ويكاد معدل ثلاثة أولاد لا يكفي لحفظ كيان الاسرة (١١) ان أسباب تعمد منع الولادة اجتماعية واقتصادية فيجب تشجيع على صحة السلالات بتكثير الجيد وتقليل الضرر الناشيء عن تكثير نسل مثل هؤلاء (١٢) يجب أن يأخذ التشريع بعين الاعتبار حجم العائلة ويجزيء الارث لغاية الضريبة الى اكبر عدد ممكن بحسب افراد الاسرة (١٣) يجب أن تعفى الاسرة المؤلفة من ثلاثة أولاد أو ولدين من ضريبة الارث وتستثنى التركات الكبيرة من هذا الحكم (١٤) يجب أن تسن انظمة خاصة لحماية الضرائب من سكان الارياف حتى لا يخشى مكانها خوفاً من قلة الاولاد الضرائب (١٥) يجب أن يراعي في انشاء القرى احتمال تناسل المزارعين. وتشجيع سكنى الارياف واشباعها مهم من وجهة صحة السلالة (١٦) ان سياسة تقليل النسل واتباع نظرية مالتوس يحرج موقف تحسين النسل لان النقص يحصل حتى بين احسن الاسر (١٧) ان الاعتماد على مجرد زيادة النسل بقطع النظر عن اختيار العناصر ذات الوراثة الصالحة مضر لانه يفسح المجال لتكاثر العناصر المنحطة

تطبيق اصلاح النسل

نبحث الآن هل موضوع اصلاح النسل قابل للتطبيق أو انه من الموضوعات النظرية الفلسفية التي يتلذذ المرء بمعرفتها ونقابل بين آراء المتحمسين الذين يعتمدون عليه في خلق جيل كامل من الناس والرجعيين الذين يعدون التدخل في الامور الطبيعية تحدياً للعزة الالهية كما قال المستر دارو: «من هو ذلك الاهوج الذي يجرؤ على تغيير طرز الانسان الجسدي» (١)

في العالم اذكياء واغبياء وصالحون وبناء وغيرهم من ذوي الصفات الصالحة الممتازة وفيه الضعفاء والبلداء والناقصو العقل والمجرمون والاعلاء وغيرهم من اصحاب الصفات السقيمة. والقوانين والانظمة والثقافات والمدنيات والتهذيب والتعاليم والعادات والتقاليد وغيرها من مظاهر الحياة وليدة هذا الجرم الصغير الذي انطوى فيه العالم الاكبر تصلح بصلاحه وتفسد بفساده فلماذا لا نستبدل الفريق الاول بالفريق الثاني ونصير كوكبنا جنة عدن وسوى الكمال (هيتوبيا) الذي يتخيله الفلاسفة والمصلحون. هذا ما يحلم به دعاة هذا المذهب وما عناه رئيس جمعية اصلاح النسل الاميركية بقوله: يجب أن نجتهد أن نري العالم أن اصلاح النسل (يوجينا) من انجع الوسائل لحل المشكلات

(١) The Eugenic Predicament, 1933, S. J. Holmes p. 125

التي يتطلبها الاطباء ورجال الصحة والاجتماعيون والقسوس والمصلحون ، مشكلات مكافحة العجز والبطالة والنقص العقلي والاخلاقي والقضاء على الرذيلة والاجرام [١]

يستطيع الانسان أن يكيف النباتات وفقاً لرغائبه فينبت الحنطة ذات الحب الكبير والصغير والبيضاء والسمراء ويولد أنواع الفواكه الطيبة الطعم الكثيرة الانتاج وضروب الورود الفوّاحة يستطيع ان يوجد البقر الحلوب والسمين الصالح للاكل والقوي الصالح للفلاحة. يستطيع ان يختار خيل السباق وخيل الركب والدجاج الكثير البيض وكلاب الحراسة والصيد وغير ذلك مما نراه من ضروب النباتات والحيوانات وفقاً لرغائبنا . فلماذا لا نطبق نفس هذه الحقائق على الانسان وهو يعيش في نفس المحيط وتؤثر فيه العوامل التي تؤثر في النبات والحيوان ويخضع لنفس النواميس الطبيعية التي تخضع لها

يقول العلامة غالتون في كتابه النبوغ الوراثي : كما انه من السهل توليد سلالة دائمة من الكلاب او جياد السباق او غيرها متصفة بالصفات المرغوب فيها اذا بذلنا الغاية في اختيار تناسلها كذلك يمكننا عملياً ان نخرج سلالة من البشر ذات مواهب فائقة بتزاوج احيائها المتعاقبة [٢]

ويقول هوسن في كتابه « مشكلة اصلاح النسل » : من الممكن توليد ضروب الناس من بين سلالات البشر الموجودة الآن بالتناسل الانتخابي ، الاغش (ذو ست اصابع) والمفتوح الكف والاشقر والاصلع والاذرد [٣] والاصم والاعمى والقزم ذي الرأس الضخم وأنواع درجات الذكاء من الابله الى العبقري [٤] ويقول ليونارد دارون الشهير في كتابه « ماهو اصلاح النسل » : حينما يعزم امرؤ على الزواج يهتم بمقدار الميراث المالي ولكنه قلما يلتفت للميراث الجسدي والعقلي [٥]

هذه لمحة صغيرة عن تضارب الآراء في هذا الموضوع الحيوي وسنتبع خطة معتدلة في تميز تجربه وبجربه معتمدين على أقوال الثقاة المعتدلين ان خير تعريف حديث لهذا العلم هو تعريف الطبيب الهولاندي الشهير فان ده فلد Van de Velde في كتابه العتم والخصب في الزواج : ان المثل الاعلى في تناسل البشر هو ايجاد سكان متناسبين مع مواردهم الطبيعية والثقافية تزداد في كل جيل قابليتهم ومواهبهم الطبيعية وتنقص عيوبهم وعللهم [٦] وتدرج هذا التعريف على اختصاره فأوعى

فغاية تحسين النسل تشجيع الصفات الجيدة ونبذ السقيمة ومما لا شك فيه ان كل امة تتمنى ان يكثر فيها عدد الاذكياء والمخترعين والاقوياء والاذكياء وينقص فيها المجرمون والبله والضعفاء

(١) H. S. Jennings : The Biological Basis of Human Nature 1930, p. 130.
(٢) Hereditary Genius p. 1
(٣) الفرد — وهو ان تسقط الاسنان كلها وقد درد درداً فهو امرد والانثى مرداء (ابن سيده)
(٤) The Eugenic Predicament (Holmes) 1933 p. 10
(٥) What is Eugenics? by Leonard Darwin p. 1
(٦) Sterility and Fertility in Marriage : Van de Velde 1931 p. 49

واضرابهم . ومما لاريب فيه أن الانسان كسائر المخلوقات الحية تابع لسنة التطور . ويؤكد العلماء بناء على ما استنتجوه من التحجرات ان الانسان الحالي يختلف عن الانسان الاول . ولا يستطيع أحد أن يجزم بمدى قدم الانسان ويرجحون أن قدمه لا يقل عن النصف مليون سنة وقد انقرضت اكثر انواع الانسان ولم يبق الا النوع الحالي أي الانسان العاقل (Homo Sapiens) الذي لا يقل تاريخه عن خمسين الف سنة . وقد مرت به أطوار عديدة كان في خلالها عرضة للطبيعة تتصرف به كما تتصرف بغيره من الحيوان . ولما ارتقى دماغه أخذ يخضع المحيط فاستطاع التغلب على كثير من الامراض واكتشف سبلاً للعيش والوقاية من الحر والبرد وغير ذلك من مستلزمات الانسان التي استطاع بواسطتها ان يتغلب على كثير من العوامل المحيطة به ولا يزال جاداً في هذا السبيل يسعى لما فيه خيره وسعادته

يؤكد العلماء أن مواهب البشر الوراثية لم تتغير وان التغير الذي حصل اقتصر على محيط الانسان ولكن صفاته الاحيائية (البيولوجية) لم تتطور ولا تزال على ما كانت عليه منذ الوف السنين . وليس من مقتضيات المدنية تقدم الناحية الاحيائية . وسبيان لدى الطبيعة إن كنا حشرات أو أرقى طبقات البشر فالذي يهمها تخليد الحياة وليس نوع الحياة التي تحياها . فالتطور يؤول الى التقدم او التأخر او بينهما[1] فنشأ جيل من الناس مواهبهم الوراثية ارقى من الجيل الحاضر بالقياس الى عصرهم . فقد ذكر غالتون في كتابه النبوغ الوراثي ان اقدم سلالة في التاريخ هي سلالة اليونان الاقدمين اذ لم يسبقهم احد فيما اخرجوه من الآثار التي تحتاج الى مواهب عقلية ممتازة ولان السكان الذين تحدر منهم هؤلاء النوابغ كانوا قليلي العدد فسكان اتيكا (Attica) اقدر ارداف السلالات اليونانية فقد نشأ فيها خلال قرن اي بين ٤٣٠ و ٥٣٠ ق.م صدفة دون تعمد كوكبة من الممتازين بمواهبهم العقلية يبلغ عددهم اربعة عشر مشهوراً اي واحد لكل ٤٣٠٠ من السكان الاحرار البالغين . وفي القرنين ما بين ٣٠٠ — ٥٠٠ ق . م أخرجت هذه البلاد الفاحلة التي لا تبلغ مساحتها مساحة جزيرة رودس اليوم وسكانها اقل من الخمس ما يقرب من الـ ٢٥ مشهوراً من الاحرار الخلص منهم :

ثيمستوكليس وميلتيادس وارستيديس وبركليز من الساسة والقواد . وسقراط وافلاطون وارسطوطاليس من الفلاسفة . واسكيلس ويوريبيدس وسوفوكليس وارستوفانيس من الشعراء . واكتينس وفيدياس وبراكسيتيليس من البنائين والمثالين . وتوسيديديس وكزينفون من المؤرخين . وديموستينيس وايسوقراطيس من الخطباء[2] (البقية في بعض الاخبار الدلية)

(١) Holmes. The Eugenic Predicament p. 4-5

(٢) Heredity and Environment 1930 (Conklin) p. 299 Hereditary Genius p. 329